

بشر بن المعتز

بقلم من علوانه

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

علينا قبل أن نذكر شيئاً عن بشر بن المعتز، أن نلم إلماماً وجيزاً بطائفة المعتزلة، لأن بشراً إمام من أئمتها. فتمر مروراً سريعاً، على المبادئ العامة التي اشتركوا فيها، والمشاكل التي أثاروها وتعرضوا لحلها، ونعرف ما قامت عليه بيناتهم من السطوة العقلية، وقوة الجدل، وامتلاك ناصية البلاغة، وفهم أسرار الكلام، وتأثرهم بالفلسفة اليونانية، وتأثيرهم في سياسة الدولة العباسية زمنياً بعيداً، وجهادهم العنيف في الدعوة إلى آرائهم. وتقرير مذاهبهم، وإطلاق العقل من قيوده إلى أبعد حدوده، وحرية الرأي، ومقارعتهم خصومهم من أهل الفرق الأخرى في غير هواة ولا لين.

أما المعتزلة عامة فقد تناولوا القول في أصول خمسة: هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المتزاتين. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... فقالوا في التوحيد: إن الله (عز وجل) لا كالأشياء، وإنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر، ولا جزء، ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم، والعرض والعنصر، والجزء والجوهر، وإن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وإنه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد، وإنه الخالق للأشياء. المبدع لها لا من شيء، وإنه القديم، وإن ماسواه محدث^(١)، وأوضحوا معنى التوحيد في جلاء، وشرحوا قوله تعالى: «ليس كمثله شيء»، أقصى شرح وأعمقه، وأولوا كل الآيات الدالة على الجهة، وعلى الأعضاء، وعلى مشابهة المخلوقات^(٢)، مثل قوله تعالى: «الرحمن على العرش

(١) الجزء الثاني مروج الذهب صفحة ١٩٠ في أثناء الكلام عن يزيد الناقص

(٢) ضحى الاسلام الجزء الثالث صفحة ٢٦

استوى ، وقوله : « يخافون ربهم من فوقهم » ، وقوله : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، تأويلا ينزه الخالق جل شأنه ، عن مشابهته المخلوقات في شيء من العَرَض أو الجوهر ، وقد أدام ذلك إلى القول بأن صفات الله : من قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام ، هي وذاته شيء واحد ، أى أنها لا توجب شيئاً آخر غير الذات الواحدة ، وإذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغيير ، فحال أن يكون القرآن وهو الكلام الذى نقرؤه بالسنتنا ، ونسمعه بأذاننا ، كلام الله أى صفة من صفاته ، وانفقوا على أن سورة وآياته وحروفه قد خلقها الله ، وأوصلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن طريق جبريل ، وهو ليس كاللحام الذى ينسب إلينا ، وينشأ من عظامنا . واستيقظت لهذا الرأى فتنة شغلت العقول ، وأثارت الجدل ، واستهوت الخليفة المأمون ، فأراق لحمايتها والدفاع عنها الدماء ، وعذب الأبرياء ، وشاعت فى عصره وعصر المعتصم والواثق بعده ، وسميت بفتنة خلق القرآن ، وصاحبها القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، ممن نشأ فى العلم ، وتضلّع بعلم الكلام ، وصحب فيه هياج بن العلاء السلمي ، صاحب واصل بن عطاء ، أحد رؤساء المعتزلة ؛ وكان ابن أبى دؤاد رجلاً فصيحاً وكان معظماً عند أمير المؤمنين المأمون ، فدرس إليه القول بخلق القرآن وحسنه عنده ، فصار يعتقدُه حقاً مبيناً ، إلى أن أجمع رأيه فى سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ ، على الدعاء إليه . وأشخص إليه العلماء والفقهاء ومشايخ الحديث ، فمن أجاب نجا ، ومن امتنع عن الجواب قتل أو عذب ، فقتل المأمون محمد بن نوح ، وعذب المعتصم أحمد بن حنبل ، وقتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعى ونعيم بن حماد ، (١)

وقالوا فى العدل : « إن الله لا يحب الفساد » ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه ، بالقدرة التى جعلها الله لهم ، وركبها فيهم (٢) ، وقالوا : إن العبد قادر ، خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً ، فى

(١) عن مفتاح السعادة الجزء الثانى صفحة ٣٩

(٢) الجزء الثانى من مروج الذهب صفحة ١٩٠

الدار الآخرة، والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر. وظلم، وفعل هو كفر ومعصية، لأنه لو خلق الظالم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً، (١)
وقالوا في الوعد والوعيد: إن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأن من مات عن كبيرة استحق الخلود في النار، وأن المؤمن إذا مات طائعاً تاباً استحق الثواب والنعيم. وقالوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إنه من واجبات المؤمنين، كل على حسب استطاعته: بالسيف أو اللسان أو المال، وأن عليهم مجاهدة المسلم العاصي، والكافر على السواء.

وقد أرادوا، بالمنزلة بين المنزلتين، من يرتكب الكبائر من الذنوب، كمن يترك إقامة ركن من أركان الإسلام، أو يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقد أطلقوا عليه وعلى مثله اسم الفاسق، ولم يطلقوا عليه اسم المؤمن أو الكافر هذه المبادئ الخمسة هي الدستور العام للمعتزلة، ولا يستحق اسم الاعتزال إلا من اعتنقها، أما إذا زاد عليها من الفروع، كان معتزلياً منسوباً إلى طريقته، كالواصلية، والبشرية، والنظامية، وهم أتباع واصل وبشر والنظام، لأنهم اعتنقوا المبادئ الخمسة، وزادوا في اعتناق الفروع التي قال بها إمام كل فرقة.

ولقد ثارت في علم الكلام مسائل، كالقضاء والقدر، والجبر والكسب في إرادة الخير والشر، والإيمان والتوبة، وشرائط الإمامة، وهل المرجع فيها إلى النص والإجماع؟ واحتكم المعتزلة فيها إلى العقل، وبسطوا سلطانه على النصوص المنزلة فأولوها على حسب ما يهدي إليه العقل، وتهيب مخالفوهم من الفرق الأخرى، أن ينازلوهم في ميدان الجدل، لقوة حججهم، وعمق فكريهم، وشدة إخمائهم، حتى تحاشوهم، وأصبح فرسان حليلة المناظرة والجدل منهم دون سواهم، ورأوا، أن العقل البشري قد منح من السلطة والسعة، ما يمكنه من إقامة البرهان، حتى على ما يتعلق بالله... فلا زلل ولا خطأ عندهم متى صح البرهان، فلنستعمل البراهين. في أدق الأدوار وأصعبها وأعقدها،

(١) الجزء الأول صفحة ٥٥ من الملل والنحل للشهرستاني على هامش الجزء الأول من كتاب الفصل لابن حزم

ففي استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها (١)، وقد لجوا في الجدل إلى أبعد حدوده، وأقاموا المناظرات، واستضاءوا كما قدمنا بنور العقل، وتزودوا بالمنطق، والبيان، ودرسوا الفلسفة اليونانية، وأحاطوا علماً بأراء الفرق المخالفة لهم، وبرعوا في فهم أسرار الكلام، والاحتجاج بمأثور القول على ما يعزز آراءهم، ويقوى حججهم، ويمكنهم من القيام بالدعوة للإسلام، والتغلب على المخالفين لهم.

أما قدرتهم على الجدل، فهي ثابتة لهم بشهادة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وهو كما تعلم من ذوى الرأى، والمتصيرين للعقل؛ قال: «كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام، ففضى دهر فيه أتردد. وبه أخاصم، وعنه أناضل، وكان أكثر أصحاب الخصومات بالبصرة، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة. أقيم ستة وأقل وأكثر، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الأباضية وغيرهم وطبقات المعتزلة، وسائر طبقات أهل الأهواء، وكنت بحمد الله أغلبهم وأقهرهم، ولم يكن في طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة» (٢).

وبالرغم من أن أبا حنيفة يحمده الله على أنه كان يتغلب على أهل الجدل، ويقهر أصحاب الخصومات، ويعترف بأن المعتزلة أجدل أهل الأهواء، فإنه على ما يظهر، كان يفهم أمامهم، ويضيق صدره بقوة حججهم، فيرميهم بقسوة القلوب، وغلظ الأفئدة، لأنهم لا يسيرون على سنن المتقدمين من التسليم بظاهر النصوص أو إغفال العقل، تحاشياً للخوض فيما يجرهم إليه الجدل من شبه ومشاكل؛ فيقول عنهم: «إني رأيت من تنحل بالكلام، وتجادل فيه، ليس سيأوهم سياء المتقدمين، ولا منهاجهم منهاج الصالحين، رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة» (٣).

وإذا كان الجدل لا بد أن يعتمد على حدة الذهن، والتزود بالأسباب

(١) ج ٣ ضحى الاسلام صفحة ٣٩

(٢) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٤

(٣) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٩

والعلل ، والإمعان والتعمق في دقائق المعاني ، والتفنن في ضروب الخطاب ، وسرعة الاستشهاد ، ليصول بلسانه حيث شاء ، ويعبر عن ضميره بأجلى العبارات ؛ فإن المعتزلة قد بلغوا من كل ذلك منزلة لم يلحق غبارها سواهم ، ولم يختص بها غيرهم ، فقد درسوا الفلسفة ، واقتضوا منها ما يوافق آراءهم ، ويلائم أهواءهم ، فمززوا به حججهم ، وقووا براهينهم ، واعتزوا بأنفسهم ، وتمسكوا بمتانة الخلق ، والاعتزاز بالنفس ؛ ومتانة الخلق من أهم الوسائل التي تميز شخصية الإنسان في رأيه وأسلوبه ومذهبه

أما متانة الخلق فيهم ، وصونه من أن تعبت به أمور الدنيا ، فأليك شهادة أبي جعفر المنصور ، داهية العباسيين وعالمهم ، في شيخ المعتزلة ومفتيها ، عمرو ابن عبيد تليذ واصل بن عطاء ، فقد قال عنه مادحاه : « نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو (١) » .

وقد كان لهم من الهية والاعتبار ، ماجعل أبا جعفر على جبروته ودهائه ، وعزته بنسبه وسلطانه ، يسمع لعظاتهم في خشوع واستعبار ، على ما فيها من خشونة ومواجهة بالحقائق المرة ما كان أبو جعفر ليقبلها ، لولا ما يعرّف من شدة تقوى المعتزلة وورعهم ، وقوة تأثيرهم في الناس . فقد دخل عمرو بن عبيد هذا على أبي جعفر ، فأمر أن تفرش له لبود بقربه . وأجلسه إليه بعد ما سلم ثم قال : يا أبا عثمان ، عظمى بموعظة ، فوعظه بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف . قال : لا حاجة لي فيها . قال أبو جعفر : والله لتأخذنّها . قال : لا والله لا آخذها . وكان المهدي حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! قالت عمرو إلى أبي جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابني وهو المهدي ، وهو وليّ عهدي . قال : أما والله لقد ألبسته لباساً ماهو من لباس الأبرار ، (لأن العباسيين كانوا يتخذون السواد لباسهم) ولقد سميته باسم ما استحقه بعمل ، ولقد مهدت له أمنع ما يكون عنه . ثم أقبل عمرو على المهدي فقال : نعم يابن أخي إذا حلف أبوك أحثه عمك ، لأن أباك أقوى على

الكفارات من عمك . فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهي ؟ قال : ألا تبعث إلي حتى آتيك . قال : إذا لالتقي اقال : هي حاجتي اثم ودعه ونهض ، فلما ولى أتبعه المنصور بصره ، وأنشأ يقول :

كلكم طالب صيد كلكم يمشى رؤيد

غير عمرو بن عبّيد (١)

أرأيت كيف يخاطب شيخ المعتزلة أمير المؤمنين المنصور ، وكيف يهون من شأن ابنه المهدي ، وكيف يزهد في ماله ويعف عنه ، وكيف يتمنى عمرو ابن عبّيد ألا يلقى المنصور فلا يسخط عليه ، وكيف يشيعه بنظرة الإجلال ؟ إنه العلم يرفع أقدار الرجال ، والزهد يكسب نفوسهم عزة . نشأ شيوخ المعتزلة في هذا الطراز ، فأثروا في سياسة الدولة الأموية والدولة العباسية ، من حدود المائة الأولى إلى حدود المائة الثالثة الهجرية ، وكانوا إلى ذلك أئمة البيان ، وأعلام البلاغة ، وكفى أن تعرف أن منهم الجاحظ ، والنظام ، والزحشرى ، وابن أبي الحديد ؛ أولئك العلماء الذين أثرت بفضلهم العربية ، وزخرت بحارها ، بما خلفوا من مؤلفات واسعة النطاق في البلاغة والأدب والعلم .

ونستطيع أن نجمل القول في المعتزلة بأنهم من ذوى الراى الذين أفسحوا من سلطة العقل ، ورجعوا في كل أمورهم إلى مشورته ، ودرسوا الفلسفة دراسة المتبصر ، وأمدوا بها علم الكلام ، وأحاطوا فهماً لأسرار اللغة ، واستظهاراً لمأثورها ، وتناولوا بالتفسير والتشريح والتحليل آيات القرآن والأحاديث ، وامتدت آراؤهم في جو السياسة فخلقت به وأثرت فيه حيناً من الدهر ، وكان لا يباريهم أحد في قوة الحجة ، وقد وضعوا أصول علم الكلام والجدل والمناظرة والبلاغة ، وملئوا الدنيا دوياء وعلماء ، وخلقوا الفرصة للعلماء المخالفين لهم ، فألفوا الكتب في الرد عليهم ومجادلتهم ونقض آرائهم ، فكان الأدب مدينأ لهم مادامت العربية وما دام لها أدباء .

وهنا ملاحظة رأيت أن أدلى بها قبل أن أتجاوز الكلام عن المعتزلة عامة ،

إلى الكلام عن بشر بن المعتمر خاصة ، وهي أن علماء المعتزلة تفرقوا في الأقاليم كما تفرق علماء النحو ، فكان هناك معتزلة بغداد ، ومعتزلة البصرة ، كما كان علماء الكوفة وعلماء البصرة في النحو ، وكان الجدل يستحر بين طائفتي المعتزلة ، كما كان يستحر بين البصريين والكوفيين من النحويين ، غاية الأمر أن الباحث المتبصر سينتهي إلى القول بأن معتزلة بغداد كانوا أقدر على الجدل ، وأقرب إلى الفلسفة ، وأعظم سلطاناً وأعلى مقاماً عند الخلفاء ، وأميل إلى الصرامة والتزمت من معتزلة البصرة ، الذين كانوا أميل إلى الأدب والبلاغة ، وأكثر إنتاجاً وتالياً ، وأقرب إلى روح التسامح والمرح ، وأبقى ذكراً في سجل التاريخ ، ولعلك تطمئن إلى هذا الرأي إذا عرفت أن بشر بن المعتمر وأحمد بن أبي دؤاد وثمامة بن أشرس من معتزلة بغداد ، وأن واصلاً والنظام والجاحظ من معتزلة البصرة وستنبع القول في رئيس المعتزلة ببغداد :

بشر بن المعتمر

هو أبو سهل ، بشر بن المعتمر ، الهلالي ، كان مولى لبني هلال بن عامر ، ذكره الجاحظ فقال عنه : إنه كان خاصاً بالفضل بن يحيى ، فقدم عليه رجل من مواله ، وهو أحد بني هلال بن عامر ، فمضى به إلى الفضل ليكرمه بذلك ، وحضرت المائدة ، فذكروا الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل في ذمة ، وتابعه القوم بذلك ، ونظر الهلالي ، فلم ير على المائدة عريياً غيره ، وغازله كلامهم ... ، (١) وهذا الخبر وإن دل على وفاء بشر لمواله من العرب ، وبرّه بهم ؛ إنما يدل أيضاً على تنقص الفضل ومن معه من أبناء الفرس من شأن العرب ، في معرض استهجان عادة كانت شائعة بين بدو الجزيرة أمام أحد أبنائها وهي أكل الضب ، حتى تغيط العربي ، وأدار بصره فيهم ، فلم يجد بينهم عريياً غيره .

وقد زعم ابن منظور أنه مولى لبني النضر فقال : « بشر بن المعتمر النضري ،

أبو سهل، كان أبرص، ويذكر أيضا أنه كان «أحد رؤساء المتكلمين»، وكان راوية، ناسبا، له الأشعار، في الاحتجاج للدين، وفي غير ذلك، ويقال: إن له قصيدة في ثلثمائة ورقة، احتجّ فيها، وقصيدة في الغول، وذكر الجاحظ أنه لم ير أحدا أقوى على المزدوج، والخمس منه، ^(١) «وأنه كان في ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحق»، ^(٢) ويذكر المرتضى «أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجبيه»، ^(٣) أي كانوا من تلاميذه. ويعزز ما جاء في اللسان من أن له قصيدة في ثلثمائة ورقة ما جاء في مرجع آخر من أن «له قصيدة أربعين ألف بيت، ردّ فيها على جميع المخالفين»، ^(٤) وقال عنه أبو القاسم الليثي: «إنه من أهل بغداد، وقيل من أهل الكوفة، والظاهر أنه ولد وترعرع في الكوفة»، ثم ارتحل إلى بغداد، وبها نشر مذهبه في الاعتزال، وتلذذ له من تلذذ، مثل أحمد بن أبي دواد وثمامة بن أشرس وأبي موسى المزداد، وكان شيخه من المعتزلة، معمر بن عباد السلي، وعده ابن المرتضى من طبقة النظام وأبي الهذيل والجاحظ.

ولم يكن أثيرا لدى الرشيد، أو حظيا عنده، مع أنه رئيس معتزلة بغداد قاطبة، وله مكانة لا تجحد في العلم والحجة والأدب، وقد يعزى هذا إلى أنه كان مختصا بالفضل بن يحيى البرمكي. أو لانهامه بأنه من الرافضة، أو لتشيعة لسيدنا علي، أو لبرصه؛ والبرص من العاهات المنفرة ممن يصاب به. وسواء كان هذا أو ذاك، فإن واحدة مما تقدم لتكفي للحيلولة بينه وبين ما كان ينتظر لمثله من حظوة وتكريم عند الرشيد، وكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ.

مذهبه

لم تبسط المراجع التي استلمنا منها الرأي عن بشر القول فيه، ولم تخلع عليه من حلل اللفظ مثل ما خلعت على تلاميذه، إلا أن الواقع أنها كلها نعتة بالزعامة، ورجعت القول في أصول المسائل إليه، فقد نسب إليه القول بأن الله

(١) الجزء الرابع من اللسان صفحة ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢، ٤) أمالي المرتضى الجزء الأول صفحة ١٣١

(٣) راجع الانتصار صفحة ١٩٤

قادر على لطف لو فعله بالكافر لآمن طوعاً ، وأنه لو تفضل خلق العقلاء في الجنة لكان أولى .

وهو صاحب القول بنظرية التولد ، وفخراها أن الأفعال التي تنتج متولدة من فعل الإنسان ، هي أيضاً من فعله ، فإذا مزجت سائلاً بآخر ، فتتج للزيج لون جديد يخالف لون كل من السائلين قبل المزج ، يقال إنك الذي فعلت المزج ، وفعلت اللون الحادث من المزج ؛ وإذا أصاب العين رمد لم تبصر معه ، فأزال الطيب الرمد ، يقال إن الطيب هو الذي أوجد السلامة في العين ، وأوجد ما يترتب عليها من الإبصار ، وجملة القول ، أنه يصح من الإنسان أن يفعل الألوان والطعوم والروائح والرؤية والسمع وسائر الإدراكات على سبيل التولد إذا فعل أسبابها ، وكذلك قوله في الحرارة والرطوبة واليوسة ، (١) ويرى أن الله يغفر الذنوب الكبائر لمن يجتريها بشرط أن يتوب عنها ولا يعود إليها ، فإنه قيل توبته بشرط ألا يعود ، (٢) فإن رجع في توبته ، أخذه الله بما ارتكب أولاً وآخراً ، لأن التوبة إنما تستوجب الغفران إذا كانت رادعة عن العودة إلى الإثم والمعصية ، وله غير ذلك أقوال أخرى في علم الكلام انفرد بها ، ولم نر ضرورة ملزمة للتعرض إلى ذكرها ، وإنما أوردنا من أقواله ما يعزز القول بأنه كان من أئمة المعتزلة وذوى الراى فيهم .

ومن الأقوال التي نسبت إليه ماورد ذكرها في كتب الفلاسفة فتأثر بها وأدبها في مسائل علم الكلام ، كمسألة التولد ، فإنها من صميم مسائل الفلسفة ، وقد تأثر بها بشر حينما تقرر عند المعتزلة القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، فزاد عليها بأنه يخلق أيضاً ما يتولد من هذه الأفعال . وقد ذكر عبد القاهر البغدادي في كتابه ، الفرق بين الفرق ، (٣) المسائل التي نسبت إلى بشر ، وأسمائها فضائح ، ثم عرض إليها ابن الخياط المعتزلى في كتاب ، الانتصار ، (٤) بالتأييد

(١) الفرق بين الفرق صفحة ١٤٣

(٢) الملل والنحل على هامش الفصل صفحة ٨٣

(٣) صفحة ١٤١ - ١٤٥ ، حيوان ٦ (٤) حيوان ٦ صفحة ٦٢ - ٦٥

(٣ - صحيفة دار العلوم)

وأبان وجه الرأي في كلام بشر، ونبي اللوم عنه، فارجع إليهما إن أردت المزيد.
وحكى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، أن بشرا كان مع اعتزاله
متشيعا لسيدنا علي، وكان يقول - وتابعه في ذلك سائر معتزلة بغداد - بتفضيل علي
على سيدنا أبي بكر، إلا أنه يحكم بصحة خلافته، لأن عليا بايعه غير مكره.
وقد ألف بشر التصانيف في الرد على معتزلة البصرة، كأبي الهذيل،
والنظام، وأبي بكر الأصم، كما ألف الكتب أيضاً في الرد على الرافضة،
والمرجئة، والخوارج.

وقد كان قاسيا في تصويره لأبي الهذيل، فقد صبه في قالب الرجل الذي
لا يدين بمبدأ ولا يدافع عن معتقد، ورماه بحب الظهور، والظفر برضا الجمهور،
قال الجاحظ: «وكان بشر يقع في أبي الهذيل، وينسبه إلى النفاق، فقال وهو
يصف أبا الهذيل: «لأن يكون لا يعلم وهو عند الناس من العلية، أحب إليه
من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة، ولأن يكون نبيل المنظر
سخيف المخبر، أحب إليه من أن يكون سخيف المنظر نبيل المخبر، وهو بالنفاق
أشد عجبا منه بالإخلاص، ولباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع»^(١)

أزبه:

لم يكن بشر من أئمة المعتزلة فحسب، ولكنه كان أرواهم للشعر^(٢) - كما
حدث الجاحظ - «وكان شاعرا. وأكثر شعره على المسمط^(٣) والمزدوج، كما

(١) أمالي المرتضى ١ ص ١٣٢

(٢) حيوان ٦ ص ١٣٥

(٣) الفهرس لابن التميمي صفحة ٢٣٠ - والمسقط من الشعر: ما قفي أرباع بيوته،
وسقط في قافية مخالفة، ويقال: قصيدة مسقط وسميطة كقول امرئ القيس:

مرايع من هند خلعت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعواذف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسح من نوء السماكين هاطل

كان من أهل الجدل، وأصحاب المقالات في البلاغة والأدب، عالماً بالأنساب، حافظاً للسير والأخبار، دارساً لطبائع الحيوان، ملماً بما كان يشحن أذهان العرب من الأساطير والخرافات.

وسنعالج القول في شعره ونثره ومناظراته. لعل هذه الأمور الثلاثة إذا أرضينا فيها البحث أن تكشف عماله من أثر في الأدب، وإن كان ما لدينا من نصوص شعره ونثره ومأثور قوله، أقل مما كنا نطمح في الوصول إليه لتجعله أداة البحث وندير الرأي حوله:

شعره:

لم يتخذ بشر الشعر ليصور به عاطفة تجيش في صدره، أوليزين به في مراتع اللعب والمجون التي كانت شائعة في عصره، أو ليتزلف به في مدح خليفة حتى يستندى كفه، وإنما اصططعه ليقارع به خصومه في الرأي، ويحتج به عليهم، ويدافع عن يميل إليهم؛ ولعله استجاب إلى الشعر دون النثر، ليستعين بسهولة حفظه، وحسن جرسه، وموسيقية نظمه، على ظهور حجته على خصمه، وشيوع قوله، وسهولة روايته، وبقائه في الأذهان.

ولهذا يسهل علينا إيجاد السبب لرغبته في الشعر المزدوج والخميس خاصة، وإثارهما على القافية المضطردة، فإن الشعر المزدوج أو الخميس مما ييسر على الشاعر النظم، ويطلقه من قيود القافية الواحدة، ويرخي له عنان القول، حتى قيل إن نظم قصيدة واحدة في أربعين ألف بيت، أو في ثلثمائة ورقة، على إحدى الروايات. وإن علماء المعتزلة كانوا يستمدون من العقل حججهم وبراهينهم، وكانوا يسلكون في التدليل على آرائهم مسالك ضيقة، فلو سار بشر في برهاناته على التزام قافية واحدة، لشرّد منه هذا التقييد كثير من المعاني، فيسقط البرهان، وتختفي معالم الدليل، أما التحلل من قيود القافية الواحدة، فإنه يمكنه من إيضاح حجته، والتغلب على خصمه، وكان بشر في هذا الصدد أهدى إلى الصواب من أبي العلاء الذي جاء بعده، والتزم في فلسفته واجتماعياته ونقده ما لا يلزم من القافية، فجاء بالغيرب، وفنك بكثير من المعنى في سبيل التكلف والتعسف.

ولا تطمع أن تجد في شعر بشر غذاءً لعاطفتك ، أو ترويحاً لنفسك ، فإنه كما قدمنا لم يسلك مسالك أهل العاطفة والخيال ، ولم يتجه بشعره كما تشتهى الفرائز ويوحى جمال الكون وأسرار الطبيعة ، ولكن معظم شعره من النوع التعليمي ، الذي يخاطب العقل ، ويهدي إلى الحجة ، ويرأى من خصومه من أهل الفرق :

فهذه مقطوعة من شعره ، يطعن فيها على هشام بن الحكم شيخ الرافضة ، ويرأى منهم ومن جهم بن صفوان ، ويفضل عليهم شيخه عمرو بن عبيد ، ويقال إنه قالها لما حبسه الرشيد لاثامه بقول الرافضة :

ما بالُ مَنْ يَتَحَلُّ الإِسْلَامَا متخذاً إمامه هشاماً

فحن لا تنفك تلقى عارا نقرت من ذكرهم فرارا

تنفيهم عنا ولسنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم

إمامهم جهم وما لجهم وصحب عمرو ذى التقى والعلم

لسنا من الرافضة ^(١) الغلاة ولا من المرجئة الجفافة

لا مفرطين بل نرى الصديقا مقدماً ، والمرضى الفاروقا

وهذه أبيات أخرى من شعره المزدوج ، يمدح بها سيدنا علياً ، ويذكر فضله على الخوارج ، ويمثلهم ببعض الحشرات الخبيثة ، وفيها يورد بعض الحكم والأمثال ، وهى : ^(٢)

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن

غر مصاييح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعارب

كئيل حرقوص ومن حرقوص بقعة قاع حولها قصيص ^(٣)

(١) هم طائفة من الشيعة رفضت إمامة زيد بن علي لأنه لم يرأى من أبى بكر وعمر

(٢) نقلاً عن الحيوان الجزء السادس صفحة ١٥٥

(٣) الحرقوص : دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل هو من البراغيث . والبقعة (بفتح

اللام) : مكان يستتبع فيه الماء . والقصيص : جمع مفردة قصيص : وهى شجرة تلبث فى أصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل

ليس من الخنظل 'يشتار' العسل ولا من البحور 'يظطاد الورل' (١).
 هيهات ! ما سافلة كعاليه ما معدن الحكمة أهل البادية
 ولبشر قصيدتان رائيتان ، إحداهما مضمومة القافية والثانية مكسورتها ،
 وتقع الأولى في ستين بيتاً ، وتقع الثانية في سبعين بيتاً ، ذكرهما الجاحظ في الجزء
 السادس من كتاب الحيوان ، وقال في مقدمة ذلك : « أول ما نبدأ - قبل ذكر
 الحشرات ، وأصناف الحيوان والوحش - بشعرى بشر بن المعتمر ، فإن له
 في هذا الباب ، قصيدتين ، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد . ونبه
 بهذا على كثير من الحكمة العجيبة ، والمواعظ البليغة » (٢) ثم شرحهما شرحاً
 وافياً ، واستطرد في الشرح على عادته إلى سرد طباع الحيوان ، والاستشهاد
 بالشعر والنثر . وذكر بعض القصص المأجنة أحياناً ، والخرافية أحياناً أخرى .
 والحق أن بشراً قد دل بهاتين القصيدتين على غزارة علم وسعة اطلاع
 وكثرة حفظ لأنواع الحيوان والحشرات وتفهم طباعها ومعرفة خصائصها .
 ولم يفته في آخر القصيدة الأولى أن يذكر الرافضة والإباضية والناطقة وينجي
 عليهم بالطعن والثلب ، كقوله :

إني وإن كنت ضعيف القوى فالله يقضى وله الأمر
 لست إباضياً غيباً ولا كرافضياً غره الجفر
 كلاهما وسع في جهل ما فعاله عندهما كفر
 لسنا من الحشو الجفافة الآلى عابوا الذي عابوا ولم يدروا
 قلوبهم شتى فامنهم ثلاثة يجمعهم أمر
 إلا الأذى أو بهت أهل التقى وإنهم أعينهم خرز
 فهو في هذه القصيدة والتي تليها يذكر الأعاجيب من طباع الحيوان والحشرات ،
 وهذه أبيات من قصيدته الأولى أيضاً نذكرها على سبيل المثال :

(١) الورل : دابة صحراوية خفيفة الحركة ليس شيء من الحيوان أقوى على أكل
 الحيات وقتلها منه . اه حيوان الجاحظ

وحكمة يبصرها عاقل ليس له من دونها ستر
جرادة تخرق متن الصفا وأبغث يصطاده صقر
سلاحه رُمح فما عذره وقد عراه دونه الذعر
والدب والفرد إذا علما والفيل والكلبة والبغر^(١)
يحجم عن فرط أعاجيبها وعن مدى غاياتها السحر
وظية تخضم^(٢) في حنظل وعقرب يعجبها التمر
وعضرفوط^(٣) ما له قلة وهدهد يكفره بكر

فهو يبدى عجيبة من حكمة الخالق لهذه الدواب والطيور ، فقد جعل الجرادة على صغر حجمها قدرة على خرق الحجر ، وجعل الطير المسمى الأبنث - وبدنه أعظم من بدن الصقر ، وهو أشد منه ومنقاره كسنان الرمح - يستخرى للصقر ويهرب منه . فالمسألة في ذلك ليست في عظم الجسم وقوته ، ولكن الخالق ركز في الصقر هيئة جعات الأبنث الضخم القوى يخشاه ويفر منه ، ثم يذكر الحيوان القابل للتعلم ، وهو الفرد والدب والفيل والكلب وصغار الغنم ، وأنها تأتي إذا علّمت بالعجب العجيب ، ثم يضى فيذكر أن من طباع الظبية حب الحنظل ، ومن طباع العقرب حب التمر ، فاعجب كيف أن الظبية تمضغ الحنظل وتستلذه وتستحليه على مرارته . ويعود فيذكر أن العضرفوط والهدهد من طبعهما أن أن يهيم على وجهيهما ، وفي أثناء هذا يشير إلى مسألة في علم الكلام ، وهي أن بكراً هذا كان يقول في هدهد سليمان ، إنه ترك موضعه وسار إلى بلاد سبأ ، ثم أطرف سليمان بنجر بلقيس ، ولكن إحسانه في الثانية ، لا يعفيه من الذنب في الأولى ، ولا يكون ذنبه الذي ارتكبه بترك موضعه ، إحساناً بعثوره على

(١) البغر : صغار الغنم

(٢) تخضم : تقطع وتمضغ بأضراسها ، والخضم يكون في قطع اللين ، أما التضم فهو قطع اليابس .

(٣) العضرفوط : دويبة يظن أنها مبطية الجن

بلقيس والوقوف على حال قومها ، فحكم على الهدمد بالنفاق والكفر ، فعرض
به بشر وانتقده ، لأنه رأى أن البهائم والطيور ترتكب الذنوب وتأتئم .
وفي القصيدة الثانية يميل إلى التنبيه إلى العظة والحكمة التي أودعها الله في
الوحوش والحشرات وما فيها من آية دالة على قدرة الله ، ويمجد العقل خير
تمجيد ، ويذكر أنه الهادي في العسر واليسر ، والحاكم الذي يستنبط الغائب من
الشاهد ، فيقول مثلاً :

والحشرات العُبرُ منبئة	بين الورى والبلد القفر
وكلها شر ، وفي شرها	خير كثير عند من يذرى
لو فكّر العاقلُ في نفسه	مدة هذا الخلق في العمر
لم يرَ إلا عجباً شاملاً	أو حجة تنقشُ في الصخر
فكم ترى في الخلق من آيةٍ	خفية الجُسمان في قعر
أبرزها الفكرُ على فكرةٍ	يحار فيها وضحُ الفجر
لله دُرُّ العقل من رائدٍ	وصاحب في العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائبٍ	قضية الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعضُ أفعاله	أن يفصل الخير من الشر
لذو قوى قد خصه ربه	بخالص التقديس والطهر

على أن بشرأ على غزارة علمه في معرفة طبائع الحشرات والحيوان وصفات
أجسامها ، قد تأثر في بعض ما نظمه عن الحيوان بما كان يشيع في عصره من
أقوال لا تستند إلى علم أو تجربة ، فهو يذكر في قصيدته الثانية التي نحن بصدد
إبداء الملاحظات عليها ، أن الجمل ليست له مرارة ، وأن خصيته وشقشقته
لا توجدان عند حدوث الموت والنحر ، وأن الفرس لا طحال له ، وأن جوف
الثور فيه عظم ، فيقول :

والمُعَرَّمُ ^(١) المعلم ما إن له مرارة تسمعُ في الذكر

(١) المكرم ككرم : البعير لا يحمل عليه

وخصية تنصل من جوفه عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى بعدهما جازرٌ شقشقة مائلة الهدر
وليس للطرف طحالٌ وقد أشاعه العالمُ بالامر
وفي فؤاد الثور عظم وقد يعرفه الجازرُ ذو الخبر

وقد علق الجاحظ على هذه الآيات بكلام نوردد إليك بعضه لما فيه من
فكاهة مليحة، قال: «لقد تنازع بالبصرة ناس فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر
لا توجد له خصية ولا شقشقة، فلم أجد ذلك عمل في قلبي مع إجماعهم على ذلك،
فبعثت إلى شيخ من جزاري باب المغيرة فسألت عن ذلك فقال: بلى، لعمري
إنهما ليوجدان إن أرادهما يريد، وإنما سمعت العامة كلمة وربما مزحنا بها فنقول:
خصية الجمل لا توجد عند منحره، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد
في موضعها^(١)، اه بتصرف

أما بعد فإتنا نكتفي من الحديث عن شعر بشر بما أوردناه، ومن أراد أن
يشبع رغبته من دراسة هاتين القصيدتين فليرجع إلى الجزء السادس من كتاب
الحیوان للجاحظ.

نثره:

ليس لدينا الآن من نثر بشر، أكثر من صحيفته الذائعة، التي لم نر أمهات
الكتب القديمة في الأدب جاءت خلواً منها، كما أن لدينا عبارات قصيرة عثرنا
عليها منشورة في أثناء الكلام عن البلاغة أو القلم، ولكنها لا تمد الكاتب بما يرغب
فيه من دقة البحث والتحليل. فلنورد صحيفته، ثم نعود إلى التحدث عنها بما يعن
لنا في إيجاز، قال الجاحظ في البيان والتبيين: (٢)

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني الخطيب وهو يعلم فتيانهم
الخطابة. فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من

(١) حيوان ٦ ص ١٤٩

(٢) الجزء الأول صفحة ١٠٤

النظارة . فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطوروا عنه كشحاً . ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيرة وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبأ ، وأحسن في الاستماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، والتكلف والمعاودة . ودمهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على اللسان سهلا . وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد . والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظهارهما . وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما . وكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخا سهلا ، ويكون معنأك ظاهرا مكشوبا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة . مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلبك . ولطف مداخلك ، وإقدارك على نفسك ، على أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهماء ، ولا تجفروا عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام . . . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتربك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ، وتجده اللفظة لم تقع بموقعها ، ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحمل في مركزها وفي نصابها ، ولم تصل بشيكلها ، وكانت قلقة في مكانها ،

نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها؛ فإنك إذا لم تعاط قرص الشعر الموزون، ولم تكلف اختيار الكلام المنشور، لم يعبك بترك ذلك أحد. وإن أنت تكلفهما ولم تكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن ابتليت بأن تكلف القول وتماطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة؛ وتعصى عليك بعد إجمالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه يياض يومك، أو سواد ليلك، وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والموائاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنع عليك بعد ذلك غير حادث شغل غرض، ومن غير طول إهمال. فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأحفظها عليك، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب. والشئ لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات. لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة. كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا. قال بشر: فلما قرئت على إبراهيم قال لي: أما أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان.

فقد رسم الوسائل التي يجري عليها مرید الخطابة، وأرجعها في جملة ما يأتى:

- (١) تخير الوقت المناسب، حين تتمتع النفس بالنشاط وفراغ البال.
- (٢) التحذير من التوغر، الذي يؤدي إلى التعقيد، وهو يؤدي إلى ضياع المعاني، ورداءة الألفاظ.

(٣) التماس اللفظ الشريف للمعنى الشريف

(٤) موافقه الكلام للحال وما يجب لكل مقام من المقال.

(٥) إن البليغ التام هو الذي يبلغ من بيان اللسان ما يفهم به العامة معاني الخاصة في الألفاظ الواسطة

(٦) خير لمن يكره اللفظ على غير موضعه، ويتعصى عليه القول بعد إجمالة الفكر، أن يتركه حتى يعأوده نشاطه، فإن رجع إليه وامتنع عليه القول بعد ذلك، كان الأولى به أن يترك الكتابة ويحترف صناعة أخرى يكون له إليها ميل

وهذه الإرشادات القيمة التي ابتكرها بشر ابتكاراً ، تصلح أن تكون دستوراً لمن يريد الكتابة أو الخطابة على السواء ، بل هي وسائل توصل إلى حذق الكتابة أكثر من الخطابة ، إلا أنها تدل على أن لبشر قدما راسخة في النقد ، وأنه ذو بصر في فن الأدب كتابة وخطابة شأنه في الشعر ، وللخطابة مقومات ودواع أخرى غير ما ذكر بشر ، وهذا الكلام يبين أن بشر أدرس الخطابة دراسة علمية ، ولكننا لم نسمع أنه كان من خطباء عصره . ويغلب على الظن أن هذه الصحيفة أثر من الدراسة الشخصية لبشر ، أى أنه لم ينقل منها شيئا عن أصول الخطابة عند اليونان ، لأن بشر أجرى في مساق الكلام عن الخطابة ، على غير الطريق الذي سلكه أرسطو في كتاب الخطابة ، كما أن التقديم الذي أورده الجاحظ لهذه الصحيفة ، من اعتراف إبراهيم بن جبلة بشدة احتياجه لدراسة الصحيفة أكثر من تلاميذه ، يدل على المكانة الأدبية التي كانت لبشر في بغداد . وأنه كما كان فيها زعيم المعتزلة ، قد كان له زعامة في الأدب

ولم أقرأ لبشر من النتاج الأدبي الفنى شيئا مطولا غير صحيفته تلك ، ويخيل إلى أنه كان يميل إلى وضع القوانين للفنون المختلفة شأن الأئمة والزعماء ، فكتابته كشعره تشريع أو تعليم .

ولقد كان بشر مطيلا في صحيفته تلك ، ومسهباً في ذكر وجوه الرأي فيها ، ولكنه في موضع آخر يقصر ويوجز كل الإيجاز ، في موضوع مشابه لموضوع الصحيفة . أى متعلق بالكتابة والخط والقلم ، فقد قال : القلب معدن ، والحلم جوهر ، واللسان مستنبت ، والقلم صانع ، والخط صنعة ^(١) ، فأورد في سطر واحد ، الكلام عن أمور خمسة ، فضرب المثل في التطويل والإيجاز ، فدل بذلك على طوعية قلم ، ورسوخ قدم .

مدرسة ومناظراته :

اتخذ المعتزلة - كما أسلفنا - الجدل والمناظرة سلاحا يشهرونه في وجوه خصومهم ، ويدحضون به حججهم ، وبرعوا في استعماله براعة دلت على عقل مفكر ، ولسان فصيح ، وعلم عزيز . ويخيل إلى أنه لو كان نظام المحاماة في القضايا جاريا في عهد العباسيين ، لكسب المعتزلة كل القضايا التي يتولون الدفاع فيها ، وإليك مناظرة جرت بين بشر وأبي العتاهية ، قصد فيها بشر إلى تزييف زهد أبي العتاهية وإظهار سوء قصده ، فأخذ عليه منافذ القول ، وأخزاه وأخفه . ووصل إلى ما يريد أن يفهمه أبو العتاهية من رأى بشر فيه ، فيقبله مدعنا ، دون أن يجد له حيلة في الرد عليه ، أو نقض ما يقول ، وإليك المناظرة :

ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أن بشر بن المعتمر قال يوما لأبي العتاهية : بلغني أنك لما نسكت جلست تحجّم اليتامى والفقراء للسبيل ، أ كذلك كان ؟ قال : نعم ؛ قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسي حسبا رفعتني الدنيا . وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجّم اليتامى والفقراء خاصة ؛ فقال له بشر : دعني من تذليلك نفسك بالحجامة ، فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك : أحب أن تخبرني : هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجّمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ؛ قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرج به على قدر طبعه بما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضرر المحجوم ؟ قال : لا ؛ قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين ١ ، (١)

وله مناظرات أخرى في مسائل علم الكلام ، تجد بعضها في الجزء السادس من الحيوان ، وتجد البعض الآخر في أمالي المراتضى فارجع إليها إن شئت

حسن علوان